حول مناهج كتابة السيرة النبوية

معتز الخطيب*

إن السيرة النبوية هي تجسيد وتمثيل تلك المبادئ النظرية المتعالية التي تضمنها القرآن، وهي برهان عملي على إمكان تطبيق الإسلام دينًا ودولة، فبعد أن تنزّل الدستور الإلهي النظري، وتم تجسيده تجسيدًا نموذجيًا ممثلاً بشخصية رسول الله ﷺ.

تحاول هذه الورقة تقديم نماذج "مجملة" عن بعض مناهج السيرة النبوية المختلفة فتستهل بتحديد مصطلحات البحث، ثم تشير إلى عملية التدوين، ومنهج التدوين في الصدر الأول، ثم تعرض لبعض أقوال المحدّثين النقدية في بعض كتب السيرة الأولى، ثم تبحث منهج السيرة الصحيحة، ثم مناهج المستشرقين، وتختم بإجمال منهج المدرسة الإصلاحية.

وسلكت في هذا البحث طريقة الإجمال، ومع ذلك لم نُخْلِ المقام من إيراد الاستشهادات، واتبعت المنهج الوصفي التحليلي في عرض القضايا. ولأنني لم ألتزم استيعاب كل المناهج، كما أنني لم أفصل فيها، جعلت عنوان الورقة (حول مناهج كتابة السيرة النبوية)، لكن حسبي أنني عرضت تصوراً واضحاً ومجملاً لأهم المناهج.

---

*ماجستير في الحديث وعلوم السنة، جامعة أم درمان، وطالب دكتوراه في قسم الحديث وعلوم السنّة.

١ ـ تحديدات

قبل الكلام على المناهج لا بد من تحديد المصطلحات الواردة في هذا البحث والتي قد تبدو مترادفة حيناً، ومختلفة حيناً آخر، وهي: السنة - السيرة - الحديث. فالحديث في اصطلاح المحدثين: هو ما أُضيف إلى النبي ﷺ (من قول أو فعل أو تقرير أو صفة. لكن الأصوليين يستثنون من التعريف كلمة (صفة)؛ لأنهم يبحثون في الأمور التشريعية العملية، والملحوظ أنهم غالباً ما يستعملون لفظ السنة بدل الحديث، أما المحدثون فإنما يستعملون لفظ الحديث أكثر من السنة، وإن أطلقوا السنة فهي ـ عندهم ـ تشمل الطريقة العملية، ومن ثَمَّ سميت السنن الأربعة (سنن أبي داود، والترمذي، والنّسائي، وابن ماجَهْ) وغيرها؛ لاعتنائها بالأحكام العملية، والأكثر في اصطلاح المحدثين أن السنة والحديث مترادفان، وهما يشملان أقوال النبي والصحابة والتابعين، وهو ما اصطُلِح عليه بالحديث المرفوع، والموقوف، والمقطوع، ومن ثم قيل: سنة الشيخين، وإن كان الأليق أن يُلحظ المعنى اللغوي لكلمة السنة، وهو الطريقة، فيقال لكل ما يتعلق بالتطبيق العملي (الفعل): سنة، ولكل ما يتعلق بالأقوال: حديث.

أما السيرة: فهي - في تطبيق المحدثين - جزء من الحديث؛ حيث إن كتب الحديث أفردت باباً لها ضمن الأبواب دُعي باسم (المغازي والسِّيَر) إلى جانب أبواب الطهارة، والصلاة، والتفسير وغيرها.

والجدير بالملاحظة أن كثيراً من كتب السيرة الأولى سميت بـ (المغازي)، كمغازي أبان بن عثمان (١٠١ هـ) ومغازي عامر بن شَرَاحيل الشعبي (١٠٣ هـ)، ومغازي موسى بن عُقْبة (١٤٠ هـ)، وتذكر كتب التراجم أن ابن إسحاق كان إماماً في المغازي، وهذا التعبير هو الشائع على لسان العلماء في ذلك العصر كالشافعي ، وإن كان المعنى اللغوي للسيرة والسنة واحدًا؛ فكلاهما بمعنى الطريقة. وثمة اصطلاحات أخرى للسنة في حقل علم العقيدة وعلم الفقه لا تعنينا هنا.

والسيرة في تطبيق مؤرخي السيرة هي حياة النبي (بكل ملامحها وتفصيلاتها، فهي أقرب إلى التأريخ التفصيلي للإسلام ممثلاً بشخصية النبي وخلفائه الراشدين وصحابته الكرام والأحداث التاريخية التي دارت بين الإسلام ومناهضيه. بل إن سيرة

---

١ انظر مثلاً: الخطيب، **الجامع لأخلاق الراوي**، تحقيق: محمود الطحان (الرياض: المعارف، ١٤٠٣ هـ) ١٦٤/٢.

ابن إسحاق تدخل في أوسع من هذا؛ حيث ضمَّ إلى السيرة غيرها من الأخبار والقصص وغيرها من أخبار أهل الكتاب ، حتى جاء ابن هشام فهذبها في "السيرة النبوية". ومن هنا اعتبر القِنَّوْجي (١٣٠٧ هـ) السيرة من فروع علم التواريخ، لكن لما كان ثبوتها بالأحاديث والآثار ذكرها في فروع علم الحديث.

بقي أن نشير إلى أن الخبر هو مادة السيرة والسنة والتاريخ.

٢ - تدوين السنة والسيرة

إن الخلاف مشهور حول موضوع تدوين السنة بين الحظر والإباحة، لكن الحقيقة الثابتة تاريخياً وفق معايير النقد الحديثية أن الحديث دُوِّن في زمنه (على شكل صحف، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب - كَتَبَ الصحيفة الصادقة - وهو ما شهد به أبو هريرة ، وثمة عدد من الصحف غيرها لعدد من الصحابة فمن بعدهم لكن هذه الصحف لم تَعْدُ كونها مدونات جزئية قاصرة عن مرحلة التدوين بمعنى التصنيف.

لكن السيرة النبوية - وخاصة المغازي - دوِّنت مبكراً جداً في مرحلة سابقة على الحديث الذي كان على شكل صحف مفردة، ذلك أن الصحابة اهتموا كثيراً بمغازي رسول الله ﷺ (حتى كانوا يعلِّمونها أبناءهم كما يُعلِّمونهم السورة من القرآن، ومن ثم وجدنا أول من دوَّن في السيرة (المغازي) - حسب المصادر - عروة بن الزبير بن العوام (٩٤هـ). وأَبَان بن عثمان بن عفان (١٠١ أو ١٠٥ هـ)، ويُروى أن كتابه كبير، وأنه يبرز فضائل الأنصار . وعامر بن شَرَاحيل الشَّعْبي (١٠٣ هـ)، وله كتاب المغازي. وعاصم بن عمر بن قَتَادة (١١٩هـ). ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (١٢٤ هـ). وشُرَحْبِيل بن سعد المدني (١٢٣ هـ). ويزيد بن هارون الأسدي المدني (١٠٣ هـ). وعبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم (١٣٥ هـ). وموسى بن عقبة (١٤٠ هـ)، وهو أصحها، على صغره، كما يقول الشافعي ، وغيرهم حتى جاء ابن إسحاق (١٥١ هـ).

---

٢ السابق، ٢/١٦٣.

٣ في **أبجد العلوم**، تح عبد الجبار زكار (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط، ١٩٧٨م) ٢/٥١٤.

٤ رواه البخاري، العلم، كتابة العلم، رقم: ١١.

٥ حسب ما نقل: العمري، **في السيرة الصحيحة** (المدينة: مكتبة العلوم والحكم، ط ٤، ١٩٩٣م) ١/٥٤.

٦ الخطيب، **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، ٢/١٦٤.

والذي يبدو لي أن كثيراً من المصنفات قبل ابن إسحاق كانت في الغالب تقتصر على ذكر المغازي وبعض ما يتصل بها، حتى جاء ابن إسحاق فوضع كتابه على ثلاثة أقسام "المبتدأ"، وتناول فيه تاريخ الأنبياء إلى نبينا ﷺ، و "المبعث"، وخصصه لحياة الرسول، و "المغازي"، تعرض فيه لنشأة الدولة الإسلامية في المدينة، وتَحَوّل الدعوة من الدفاع إلى الهجوم .. حتى جاء ابن هشام (٢١٨هـ) واختصره، ومن ثَمَّ لقي من العناية ما لقي واعتُبر عمدة المغازي والسير؛ لاشتماله على أحداث السيرة عامة.

٣ ـ منهج تدوين السيرة في الصدر الأول

يغلب على المؤرخين حتى ابن خلدون (٨٠٨هـ) منهج جَمْع الأخبار وسرد الأسانيد دون أي تحليل، وفيما يخص الترتيب فقد اعتمد وهْب بن مُنَبِّه (١١٠هـ) وابن إسحاق (١٥١هـ) على التأريخ من بدء الخليقة وكان ذلك أول محاولة - فيما نعلم - للتأريخ الشامل ثم تبعهما - في التأريخ العام للعالم - الدينوري (٢٨٢هـ)، واليعقوبي (٢٨٤هـ)، ثم الطبري (٣١٠هـ) الذي يُعَدُّ أبرز كتّاب التاريخ وأهمهم، وقد اعتمد بشكل رئيس على الإسناد؛ لكونه محدثاً. واعتمد مَعْمَر بن راشد (١٥٣هـ) في مغازيه على ترتيب الأخبار على أساس موضوعي، على نحو ما فعل في (الجامع) الذي يعد من أوائل المجموعات الحديثية المدونة في السنة.

ولكن كتب السيرة والتاريخ لم تخضع لمنهج النقد الذي كان معزولاً عن الرواية التاريخية ومستثمرًا بشكل ضخم في الرواية الحديثية فيما عدا الكتب التي أفردت بابًا خاصًا للمغازي والسير من الكتب الستة كالبخاري مثلاً، وهذا يعود لسببين:

الأول: موقع كل من الروايتين، وأهميتها؛ فالرواية الحديثية تتعلق بالحلال والحرام، ولذلك تساهل فيها المحدثون أنفسهم [7]، ومن ثم وجدناهم تكلموا في ابن إسحاق ونزلوا بروايته الحديثية عمن يحتج به [8]، بينما اعتبروه إمام أهل المغازي، وقد يكون تساهله في قبول الأخبار سبب المنافرة بينه وبين الإمام مالك الذي كان يشترط الصحيح ويشدِّد

---

٧ انظر: الكتاني، **الرسالة المستطرفة**، تح: محمد المنتصر الكتاني (بيروت: البشائر الإسلامية، ط٤، ١٩٨٦م) ص٤١، ٤٢.

٨ انظر الخطيب، **الكفاية**، تح: أبي عبدالله السورقي، إبراهيم المدني (المدينة: المكتبة العلمية، د. ط. ت) ص ١٣٤.

٩ المراد المصطلح الحديثي (حجة)، وهو خلاف (ثقة)، فابن إسحاق ثقة حسن الحديث ولكن ليس حجة.

فيه ، وحتى أحمد بن حنبل، قال فيه: "لم يكن يحتج به في المسند" ، وكذلك الحال في الواقدي الذي كذبه بعضهم واحتج به آخرون في المغازي.

والأمر الثاني: الفرق الجوهري بين المحدث والمؤرخ، الذي دعي باسم (الأخباري) عند المحدثين ؛ فالمؤرخ إنما يعتني بتوثيق الحدث وإيراد كل ما عنده من أخبار في ذلك بينما يتوجه المحدث إلى تحري الرواية عن الرسول ﷺ، وتمييز المقبول من المردود؛ لأنه يتكلم في الحلال والحرام.

وعلى كلٍّ فقد كان العلماء في القرون الثلاثة الأولى يعتمدون على قاعدة مفادها: (مَنْ أَسْنَد إليك فقد حَمّلك)، ومن ثم كانوا يوردون الأخبار بأسانيدها، والعهدة على الإسناد؛ لكون ذلك شائعًا في تلك المرحلة التاريخية. ولم يتم توظيف منهج النقد في سياق الأخبار التاريخية إلا في محاولات جزئية في الحوادث الخاصة من السيرة كالمغازي وغيرها؛ مما يتصل اتصالاً وثيقًا بالحلال والحرام أو بشخص النبي (كما وجدناه في بعض الكتب الستة، وبدا ذلك أيضاً عند المتأخرين كابن كثير (٧٧٤هـ) ـ مثلاً ـ في البداية والنهاية الذي تعرض فيه لنظرات نقدية مبثوثة في كتابه ولكنها تبقى جزئية.

٤ ـ نقد المحدثين لكتب المغازي والسير

سبق أن أشرت إلى أن للمحدثين نظرات نقدية في كتب المغازي نعرض لبعضها هنا من خلال كتب ابن إسحاق والواقدي وموسى بن عقبة.

أ ـ ابن إسحاق

قال الخطيب البغدادي: "أما المغازي فمن المشتهرين بتصنيفها وصرف العناية إليها محمد بن إسحاق المطلبي، ومحمد بن عمر الواقدي؛ فأما ابن اسحاق: فقد تقدمت منا الحكاية عنه أنه كان يأخذ عن أهل الكتاب أخبارهم، ويُضمّنها كتبه، وروي عنه ـ أيضًا – أنه كان يدفع إلى شعراء وقته أخبار المغازي ويسألهم أن يقولوا فيها الأشعار ليلحقها بها...".

---

١٠ انظر تفاصيل تلك المنافرة في ترجمة ابن اسحاق من: الذهبي، **السير**، ٥١/٧.

١١ المصدر السابق، ٤٦/٧.

١٢ انظر الإشارة إلى ذلك في: ابن حجر، **نزهة النظر**، تح: نور الدين عتر (دمشق: دار الخير) المقدمة.

١٣ الخطيب، **الجامع**، ١٦٣/٢.

وقال ابن عدي: "قد فتشت أحاديثه - يعني ابن إسحاق - فلم أجد في أحاديثه ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعف، وربما أخطأ أو يهم كما يخطئ غيره، ولم يتخلف في الرواية عنه الثقات والأئمة وهو لا بأس به". قال الذهبي: "لا ريب أن ابن إسحاق كثّر وطَوّل بأنساب مستوفاة اختصارها أملح، وبأشعار غير طائلة حذفها أرجح، وبآثار لم تصحح، مع أنه فاته شيء كثير من الصحيح لم يكن عنده، فكتابه محتاج إلى تنقيح وتصحيح، ورواية ما فاته".

ب - الواقدي

قال الخطيب: "وأما الواقدي فسوء ثناء المحدثين عليه مستفيض، وكلام أئمتهم فيه طويل عريض.. قال الشافعي: " كتب الواقدي كذب... "، فما روي من هذه الأشياء عمن اشتهر تصنيفه وعُرف بجمعه وتأليفه: هذا حكمه، فكيف بما يورده القصاص في مجالسهم ويستميلون به قلوب العوام من زخارفهم ؟! إن النقل لمثل تلك العجائب من المنكرات، وذهاب الوقت في الشغل بأمثالها من أخسر التجارات".

وقال أبو داود: "ليس ننظر للواقدي في كتاب إلا تبين لنا أمره، وروى في فتح اليمن وخبر العنسي أحاديث عن الزهري ليست من حديث الزهري".

وقال ابن حبان: "كان - يعني الواقدي — يروي عن الثقات المقلوبات، وعن الأثبات المعضلات، حتى ربما سبق إلى القلب أنه كان المتعمِّدَ لذلك" . وقال ابن عدي: "متون أخبار الواقدي غير محفوظة، هو بيِّن الضعف، والبلاءُ منه".

ج - موسى بن عقبة

قال الشافعي: "وليس في المغازي أصح من كتاب موسى بن عقبة مع صغره، وخلوه من أكثر ما يُذكر في كتب غيره".

---

١٤ الذهبي، **السير**، ٦/١١٥-١١٦.

١٥ الخطيب، **الجامع**، ٢/١٦٣.

١٦ الخطيب، **تاريخ بغداد** (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط.ت) ٣/١٥.

١٧ ابن حبان، **المجروحين**، تح: محمود زايد (حلب: دار الوعي) ٢/٢٩٠.

١٨ ابن عدي، **الكامل**، تح: يحيى غزاوي (بيروت: دار الفكر، ط٣، ١٩٨٨م) ٦/٢٤٢.

وقال الذهبي: "وأما مغازي موسى بن عقبة: فهي في مجلد ليس بالكبير، سمعناها، وغالبها صحيح ومرسل جيد، لكنها مختصرة تحتاج إلى زيادة بيان وتتمة".

٥ ـ السيرة الصحيحة

ومع تطور علم التاريخ واتساعه، ونشوء منهج النقد التاريخي ونموه في الغرب، حاول بعض المعاصرين توظيف منهج النقد في السيرة، فنشأ ما سمي "السيرة الصحيحة".

لكن تطبيق منهج المحدثين بقواعده الصارمة سيُفقدنا كثيرًا من الأخبار التاريخية، لأنها تفتقد لتلك المعايير السليمة التي توفرت في الحديث النبوي الشريف، الأمر الذي سيُحْدث فجوات تاريخية يحتاج إليها المؤرخ، وقد يكون هذا ما دفع المحدثين إلى عدم القيام بهذه المهمة بشكل مفصل وشامل، واكتفوا بإبداء نظرات نقدية في كتب السيرة عامة وعلى وجه الإجمال، بل إنهم تساهلوا في المؤرخين كما أشرنا إلى ذلك قبل، ومع أنهم ضعفوا الواقدي واتهموه بالكذب قالوا: "لا يُستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم" ، وذلك لما ذكرنا، وكان من أوسع من جمع المغازي والسير.

وتساهلهم في قبول الرواية التاريخية يكاد يماثل تساهلهم في قبول رواية الأخلاق والفضائل، حتى قال أحمد بن حنبل: "إذا روينا عن رسول الله في الحلال والحرام والسنن والأحكام شَدَّدنا في الأسانيد، وإذا روينا عن النبي في فضائل الأعمال، وما لا يضع حكمًا ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد".

---

[١٩] الذهبي، **السير**، ٦/١١٥-١١٦.

[٢٠] قام بها أكرم ضياء الدين العمري وذكره في مقدمة: **السيرة الصحيحة**، ١/٢٣ ستة عشرة رسالة جامعية وظّف فيها منهج المحدثين في نقد روايات السيرة، وربما يتصل بهذا الموضوع محاولة أبو شهبة في (السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة)، وإن كنا لا نرى العنوان دقيقاً، وكذلك تحليل محمد عزت دروزة للآيات القرآنية المتعلقة بالسيرة في كتابه (سيرة الرسول).

[٢١] انظر ترجمته في: الذهبي، **السير**، ٩/٤٥٤-٤٦٩.

[٢٢] الخطيب، **الكفاية**، ص ١٣٤.

ومن توجه إلى جمع السيرة الصحيحة من المعاصرين لم يستطع أن يلتزم بالصحيح والحسن بالاصطلاح الحديثي؛ لأن الأخبار الموجودة بهذه الدرجة لا تغطي جوانب السيرة الكاملة، كما هي في سيرة ابن هشام وغيره، ومن ثم كان لا غَناء لكتّاب السيرة عن كتب المغازي والتي فيها أخبار قد تخلو من الأسانيد أصلاً.

أما الآيات القرآنية المتعلقة بالسيرة النبوية: فهي لا تتعدى بضع عشرات من الآيات، وهي في مجملها تتحدث عن المغازي (كبدر، وأحد، وحنين، والعسرة...)، ونحو ذلك من البيعة ونشأة الرسول وغير ذلك، وهي مع ذلك تمتاز بالإيجاز الشديد، ويعود ذلك إلى الفارق بين الصياغة الأدبية التي امتاز بها القرآن والصياغة التاريخية، فضلاً عن أن القرآن يكتفي بالقدر الذي يحقق العبرة والعظة.

٦ ـ مناهج المستشرقين في كتابة السيرة

إن الكلام عن مناهج المستشرقين يقتضي تتبع كتاباتهم وتحليلها والتدليل على ذلك بالنقولات عنهم، وهو ما يحتاج إلى مطوَّلات، لكن حسبنا أن نسجل هنا بعض الملحوظات المنهجية على دراسات المستشرقين، ثم نحاول أن نشير إلى أصول مناهجهم على وجه الإجمال.

ـ إن المستشرقين الذين يكتبون عن الإسلام ونبيه لا يمثلون اتجاهًا واحدًا وإن كان ثمة تقاطعات بينهم؛ لأنهم أبناء ثقافة واحدة تختلف جذريًا عن حضارة الإسلام وثقافته، ولذلك من العسير على المستشرق أن يدرك أثر الفكرة الدينية وحركتها في التاريخ وتأثيرها على النفس البشرية كإدراك المسلم المؤمن؛ فالمؤرخ غير المسلم يتعامل بتجرد شديد (بمنهج مادي صارم) مع الحدث التاريخي، لكنه يغفل دوافع النفس وكوامنها في خلق الحدث وتوجيهه، لأنه يتعامل مع حدث غريب عنه، ومن ثم فهو لا يتفاعل معه، ولا تخلو تلك الدراسات من حضور طاغٍ لنموذج يقاس عليه هو

---

٢٣ من هنا نجد أن سيرة: محمد أبي شهبة التي عنونها بـ (السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة) ليست دقيقة لأنها لا تختلف كثيرًا عن كتب السير المعروفة، وإن كان اعتنى بذكر الآيات، ولو طبق ما التزمه في العنوان لكانت سيرته أصغر مما هي عليه الآن.

٢٤ انظر: توينبي، **دراسة في التاريخ**، ٤٥٣/٣. عن وات، **محمد في مكة**، ترجمة شعبان بركات (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، د. ت) ص ٢٠.

النموذج الغربي (المهيمن) في ظل العلاقة العدائية بين الإسلام والغرب. من هنا ليس غريبًا أن يعزو توينبي الفتوحات الإسلامية إلى قحط الصحراء وجوع العرب!!

- إن الموضوعية من الصعب تحققها في تلك الدراسات؛ لما تتسم به العلاقة بين الإسلام والغرب من مؤثرات ذات عمق تاريخي (الحروب الصليبية - الاستعمار)، ولا شك أن التزام الموضوعية والحياد سيؤدي إلى الإقرار بحقائق الإسلام الثابتة، الأمر الذي يبرر إسلام عدد من المستشرقين.

- إن الدوافع تحكم المناهج، ومن المسلّم به أن الاستشراق ارتبط منذ نشأته بالدوافع الاستعمارية لمحاولة استكشاف الشرق واحتوائه.

- إن البحث في الإسلام يختلف كثيراً عن أي بحث آخر؛ لأن الباحث غير المسلم سيصطدم ابتداءً بقضية الوحي، والمعجزات، وغير ذلك؛ فهو إن كان ممن ينتمون إلى الاتجاه الديني ــ اليهودي أو المسيحي ــ فهو متهم ابتداءً بالتحيّز لموقف اليهود والنصارى من الإسلام الرافض الاعتراف به كموير، ووات، وفلهاوزن، وبروكلمان، وميشيل بودييه الذين أكدوا صلة الإسلام بالنصرانية واليهودية، وأنه استلهم تعاليمه منهما !! وقد اعتبر بودييه الكتاب المقدس المعيار للحكم على القرآن، وبيَّن المواضع التي " أفسد فيها النبي الزائف الديانة المسيحية " على حد قوله !

وإن كان من أصحاب المنهج المادي فهو سينكر ابتداء قضية الوحي، أو سيحاول تفسيرها تفسيرًا ماديًا كعدِّ "مشاريع الرسول المستقبلية" ثمرةً لمعاناته (اليتم)، أو سيحاول تفسير الظاهرة وفق أسس التحليل النفسي لفرويد. يقول مونتغمري وات: "أرى من وجهة نظري أن هناك خيالاً خلاّقًا متدفقًا لدى محمد، وأن معظم الأفكار الناجمة عن هذا الخيال صحيحة وعادلة، ولكن جميع الأفكار القرآنية ليست كذلك.." !

---

٢٥ انظر آراءه في: جوستاف بفانمولر، فصول مترجمة، من كتاباته، باسم "سيرة الرسول في تصورات الغربيين"، ترجمة: محمود حمدي زقزوق، قطر: **مجلة مركز بحوث السنة والسيرة**، ع / ٢، ١٩٩٧م، ص ١١٥.

٢٦ عن: ساسي سالم الحاج، **الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية** (مالطا: مركز دراسات العالم الإسلامي، ط١، ١٩٩٢م) ٢/١٢١.

- إن قضية الوحي التي هي أساس الرسالة الإسلامية غير خاضعة لمقاييس العقل والمناهج المادية التي يستلهما الغربيون وغيرهم.

- إن المستشرق الذي لا يؤمن بقضية نبوة محمد ﷺ سيسعى منذ البداية إلى تأويل أو تفسير ظاهرة الوحي وما ينتج عنها (القرآن) بما يخضع للمقاييس المادية التي يتبناها، وهو ما حدث حيث تم تفسير تلك الظاهرة وفق أسس التحليل النفسي لفرويد!:

"لقد حالت الأوهام والأباطيل زمنًا طويلاً دون درس مصادر الإسلام في أوروبا دراسة علمية، ثم جدّ في البحث العلمي بعض العلماء في القرن التاسع عشر، ومنهم كوسان دوبرسفال، وموير، وفيل ومرجليوث، ونولدكه وسبرنجر، وسنوك هورغرونجه، ودوزي، ثم تناوله مؤخرًا كايتاني، ولامنس، وماسينيون، ومونته وكازنوفا وبيل وهوار، وهوداس، وأرنولد، ومارسيه، وغريمه، وغولد سيهر، وغود فروا دومونبين وغيرهم".

وافتتح جوستاف فايل عام ١٨٤٣م حِقبة جديدة في البحث في حياة محمد ﷺ؛ فقد ظهر أول عرض تاريخي نقدي لحياة محمد من تأليفه . ويتلخص منهج فايل - كما يقول بفانمولر - في ما يأتي:

أ. بحث ما قرره العرب حول مؤسس الإسلام بحثًا نقديًا، وعزل الوقائع التاريخية الموثوق بها عن الأساطير المتأخرة.

ب. بحث طبيعة محمد بوصفه إنسانًا ونبيًا ومشرعًا دون الوقوع تحت أسر مذهبي.

ج. وأخيرًا رتب القرآن ـ الذي يمثل مزيجًا مختلف الألوان من الأناشيد والصلوات والعقائد والمواعظ والقوانين والتنظيمات - ترتيبًا زمنيًا.

ويجمل بفانمولر تقويم كتب السيرة من كتاب ميشيل بودييه الصادر سنة ١٦٢٥م إلى كتاب جوستاف فايل سنة ١٨٤٣م فيقول: "كانت كل الكتب عن

---

٢٧ إميل درمنغم، **حياة محمد**، ترجمة عادل زعيتر (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط٢، ١٩٨٨م) ص ١٠.

٢٨ جوستاف بفانمولر، **فصول مترجمة من كتاباته**، ص١٣١.

حياة محمد حتى ذلك الوقت لا تزال تستند باستمرار، بدرجة ـ تقل أو تكثر ـ على كتاب جان جانييه الذي ظهر قبل ذلك بقرن من الزمان. ولكن جانييه لم يضع لنفسه مهمة وصف محمد كما كان، بل كان يكتفي بترجمة المصادر العربية ويضعها ببساطة بجوار بعضها دون أي نقد، و لم يخطر ببال أحد ممن جاؤوا بعده أن يقارنوا الترجمة التي قدّمها بالنصوص الأصلية، و لم يُخضعوا مضمونها لنقد تاريخي؛ فقد أخذ كل منهم ما استطاع أن يستخدمه في كتاباته، وإذا حدث أن استخدمت بعد ذلك مصادر أخرى لسيرة محمد غير تلك التي كانت متوفرة لجانييه، فإن ذلك كان يحدث بسطحية وغفلة لا يلتقيان بالتاريخ".

إن كثيرًا من دراسات المستشرقين لم يسلم من المؤاخذات، وهذا نتيجة "طبيعية" لما قدّمناه قبل من ملحوظات منهجية حول دراساتهم، لكن كثيرًا منها ـ أيضًا ـ لم يلتزم المنهج العلمي؛ فقد غالى بعضهم فارتاب في وجود النبي (وعدوه شخصية أسطورية، ومن هؤلاء المستشرق الروسي تولستوف الذي أكد أن الإسلام نشأ من أسطورة مستمدة من اعتقادات سابقة، تسمى "الحنيفية" !

ألحّ المستشرقون كثيرًا على دراسة البيئة التي نشأ فيها الإسلام، وذلك للبرهنة على أن الإسلام ونبيه تأثرا بهذه البيئة وكانا نتاجًا طبيعيًا (بشريًا) يلبي احتياجاتها. بل إن الأب هنري لامانس خصص دراساته "مهد الإسلام"، "مكة عشية الهجرة"، "مدينة الطائف عشية الهجرة"، وغيرها لإثبات ذلك.

وقد حاول مكسيم رودنسون تفسير البعثة المحمدية تفسيرًا مادياً من خلال تركيزه على الموقع الجغرافي لمكة وتجارتها وغير ذلك؛ ليثبت أن الدعوة قامت لأسباب اقتصادية بالدرجة الأولى . ثم جاء هيوبرت جريم في نهاية القرن التاسع عشر ففسّر الرسالة المحمدية بأنها دعوة إلى نوع من الاشتراكية ومحاولة للإصلاح

---

٢٩ بفانموللر، **فصول مترجمة من كتاباته**، ص ١٣١.

٣٠ انظر، ساسي سالم الحاج، **الظاهرة الاستشراقية**، ٣/٥٩.

٣١ المرجع السابق، ٣/٢٨.

٣٢ السابق، ٣/٦٤– ٦٥.

الاجتماعي تهدف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة وعلى الأخص إزالة الفروق الصارخة من خلال فرض "ضريبة" على الأغنياء (الزكاة)، وتخويفهم من عذاب الآخرة بوصفها وسيلة للضغط النفسي.

وهذه الإسقاطات كثيرة في مناهج المستشرقين؛ فهذا رودنسون ينطلق في تخيل شخصية النبي ﷺ معتمدًا على منهج التحليل النفسي عند فرويد . ويفسّر مونتغمري واط الوحي بأنه شعور داخلي صادق، وسبب الفرق بين القرآن والحديث أن الحديث صدر عن العقل الظاهر والقرآن صدر عن العقل الباطن.

ويعتمد كثير من المستشرقين منهج الشك الديكارتي في تعاملهم مع الخبر التاريخي متجاهلين تمامًا معايير النقد الإسلامية، ومن ثم كان بدهيًا أن تقع مصادمات كثيرة بين دراسات المستشرقين ودراسات المسلمين، فهذا رودنسون يشكك في محبة أبي طالب للنبي متسائلاً: "ألم تكن هذه القصص من قبيل تحريف سير القدّيسين ؟!" ، وكذلك يشكك في قصة الحجر الأسود، وغير ذلك. بل إن واط شكَّ في ولادة النبي بعد وفاة والده ، وبناء على ذلك شكك الكثيرون في حادثة "شق الصدر" والمعجزات وغيرها. يقول درمنغم: "لقد ابتعدت عمدًا عما هو ظاهر الوضع، وعن المعجزات التي اختُرعت بعد وفاة النبي بقرنين، وعما هو غير محتمل".

إن جُلَّ المستشرقين لا يرون الرسالة المحمدية إلا في سياقها البشري التاريخي، ومن ثم يقول واط: "يمكننا فهم القرآن باعتباره مجموعة أفكار قابلة للدراسة في

---

٣٣ انظر آراء هيوبرت في: ساسي، **الظاهرة الاستشراقية**، ٣/١١٦.

٣٤ السابق، ٣/٧٣.

٣٥ انظر كلامه في: أكرم العمري، "موقف الاستشراق من السنة والسيرة"، **مجلة مركز بحوث السنة والسيرة**، ع/٨، سنة ١٩٩٥م، ص ٦٠، ٦١.

٣٦ انظر كلامه في: ساسي، **الظاهرة الاستشراقية**، ٣/٦٨.

٣٧ انظر: وات، **محمد في مكة**، ١/٦٥. عن ساسي، **الظاهرة الاستشراقية**، ٣/٦١.

٣٨ درمنغم، **حياة محمد**، ص ١٢.

إطارها الاجتماعي والتاريخي ، ومن ثم لا يرون في القرآن الكريم، الدستور الإلهي، سوى أفكار قاصرة على مرحلة تاريخية، ومن ثم نقض فكرة الصلاحية المطلقة، وهو ما يصادم ـ صراحة ـ الاعتراف بإلهية مصدره، الأمر الذي انساق وراءه بعض المعاصرين.

وفي الوقت الذي ينكر عدد من المستشرقين أحداث ثابتة تاريخيًا وفق المنهج الإسلامي، ولا يمكن إنكارها البتة كاسم النبي ﷺ "محمد" يلجأ كثير من المستشرقين إلى "الانتقائية" الظاهرة، ومن ثم وجدنا سبرنجر وهرشفلد ودرمنغم يرون أن اسم النبي الحقيقي هو "قُثَم"!! معتمدين في ذلك على رواية " ساقطة " ذكرها صاحب السيرة الحلبية في باب "تسمية الرسول"، ومع أن تلك الرواية تنص على أن جده عَدَل عن تسمية " قثم " بعد ولادته مباشرة إلى "محمد "، يتجاهل المستشرقون هذا، ويبنون على تلك الرواية أغرب النتائج !

يقول درمنغم: "إن الاسم الأصلي للنبي هو قُثَم، فلم يلبث هذا الاسم أن عُدِل عنه بعد ولادته بوقت قصير، أو حين بعثته، إلى محمد الذي هو لقب نبوي أكثر من أن يكون اسمًا . وفي هذا ـ كما هو ظاهر ـ تجاهل شديد لأساسيات منهج النقد التاريخي والحديثي معًا؛ حيث تم تجاهل الثابت (يقينًا) على مدى قرون، في سبيل إثبات خبر غريب، رفضه كل علماء المسلمين أنفسهم !

وفي حين يتفق جميع المؤرخين المسلمين على أن النبي ﷺ (لم يمارس أي لون من ألوان العبادة السائدة في قومه، يذهب رودنسون مستندًا إلى " رواية نادرة " ـ على حد تعبيره ـ إلى أنه أهدى لحمًا كان قد تقرب به لبعض الأصنام..!

إن كل الدراسات الاستشراقية (باستثناء عدد قليل ممن أقرّ بالنبوة) تتعامل مع شخص النبي بوصفه إنسانًا وحسب، ومن ثم تمت دراسته بمناهج مفعمة

---

٣٩ عن: ساسي، **الظاهرة** الاستشراقية، ١٢٤/٣.

٤٠ انظر درمنغم، **حياة محمد**، ص ١٢ – ١٣.

٤١ السابق، ص ١٢.

٤٢ انظر كلام رودنسون في: ساسي، **الظاهرة الاستشراقية**، ٩٣/٣.

بالوضعية؛ فتعاليمه هي مشاريع أنتجتها البيئة، وكانت آلام محمد الإنسان هي الحافز لذلك الخيال الخلّاق الذي أبدع تلك المشاريع، وما المعجزات إلا نتاج ذلك الخيال الصادق - وفق بعضهم - أو الكاذب عند آخرين، ومن ثم وجدنا غير واحد يعتمد منهج التحليل النفسي الذي وضع أسسه فرويد؛ لتحليل شخصية محمد ﷺ مبدع تلك (المشاريع) !!

ونحن هنا نستبعد تلك الأطروحات الاستشراقية الغارقة في حُمَّى المذهبية، والتي لم تتورع عن وصف النبي بأسوأ الأوصاف، وفي هذا يقول مونتغمري واط: "إنه ليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حُطَّ من قدرها - في الغرب - كمحمد، فالكتّاب الغربيون أظهروا ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عنه".

ويحسن بي أن أختم الكلام على منهج المستشرقين بتقويم نقدي إجمالي لدراسات المستشرقين قدَّمه درمنغم إذ يقول: "ومن المؤسف حقًا أن غالى بعض هؤلاء المتخصصين في النقد - أحيانًا- فلم تزل كتبهم رسمًا، وكانت عامل هدم على الخصوص ... ومن المحزن ألا تزال النتائج التي انتهى إليها المستشرقون سلبية ناقصة، ولن تقوم سيرة على النفي... ومن دواعي الأسف أن كان الأب لامنس - الذي هو من أفضل المستشرقين المعاصرين، ومن أشدهم تعصبًا - شوّه كتبه الرائعة الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ونبي الإسلام؛ فعند هذا العالم اليسوعي - الذي أفرط في النقد فوجّه آخرون مثله إلى النصرانية - أن الحديث إذا وافق القرآن كان منقولاً عن القرآن؛ فلا أدري كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضى تطابق الدليلين تهادمهما بحكم الضرورة بدلاً من أن يؤيد أحدهما الآخر؟!.

إن تلك الدراسات الاستشراقية الكثيرة التي عملت على احتواء الشرق الإسلامي أسهمت كثيرًا في تكوين الوعي الغربي وفق الصورة التي رسمتها عن الشرق، وكان لها كبير الأثر في تعويق الغربي وتحصينه ضد الإسلام الذي كان - ولا يزال - يوصف بـ (دين الأتراك)، أو (العقيدة التركية)، ويوصف النبي ﷺ بـ (نبي

---

٤٣ نقله: ساسي، **الظاهرة الاستشراقية**، ٣/١٢٠.

٤٤ درمنغم، **حياة محمد**، ص ١٠ - ١١.

الأتراك) ، وذلك يحمل من الإيحاءات وبذور العداء الشيء الكثير؛ مما يسهم في إذكاء " الصراع" بين الإسلام والغرب. وإذا كانت تلك الجهود والدراسات كتبت بلغة الغربي نفسه؛ مما يعني أنها كانت موجهة إليه (خاصة)، فإنها في بدايات القرن العشرين ثم تحولت إلى المسلم نفسه من خلال المستشرقين الذين طوّفوا البلاد العربية، وتبوؤا بعض مناصب التعليم في الجامعات، وأخيرًا من خلال المؤتمرات التي تعقدها الأمم المتحدة لتذويب القيم الإسلامية من خلال قضايا المرأة والأسرة في محاولة لفرض النموذج الغربي والأمريكي خصوصًا في ظل العولمة/الأمركة الشاملة.

٦ - منهج المدرسة الإصلاحية في كتابة السيرة

كان من نتائج احتكاك العرب بالغرب وأبحاث المستشرقين أن حدث جدل واسع أثار الكثير من الإشكاليات في حقل العلوم الإسلامية، ومنها قضايا الوحي والمعجزات وغير ذلك. وكان أن برز الشيخ محمد عبده رحمه الله وحاول أن ينهض بالتعليم الأزهري، والعلوم الإسلامية على أسس حديثة متأثرًا بالنهضة الغربية، ومحمد عبده لم يكتب في السيرة، لكنه تعرض في تفسيره وغيره لقضية الوحي والمعجزات، وهما من ركائز السيرة وأساس النبوة، وكان أن تأثر به عدد من علماء عصره ومن بعدهم مثل: رشيد رضا، وأحمد أمين، ومصطفى المراغي، ومحمد حسين هيكل، ومحمد فريد وجدي، ومحمود شلتوت، ومحمد الخضري، ومحمد الغزالي رحمهم الله، وغيرهم، فنشأ ما سُمّي بـ (المدرسة الإصلاحية).

يُعرّف الشيخ محمد عبده الوحي بأنه: "عرفان يجده الشخص من نفسه.." . في حين استقر تعريفه عند العلماء على أنه "إعلام الله تعالى أحد خلقه.."، بمعنى أن محمد عبده يجعل المعرفة ذاتية، في حين يرى العلماء أن المعرفة خارجة عن ذات "النبي". هنا نجد أن محمد عبده يجري مراجعة جذرية للعلوم الإسلامية من خلال

---

٤٥ تلك هي عبارات كل من ميشيل بوديه، وبفانمولر، وليسنج وغيرهم. انظر: بفانمولر، "الفصول المترجمة"، **مجلة السنة والسيرة**، ع/٢، ص ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١٢٤.

٤٦ محمد عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٧٩م)، ٤١٥/٣.

التأسيس لمرجعية العقل وتحرير العلاقة بين العقل والوحي، فإذا تعارض العقل مع النقل قُدِّم العقل ويبقى في النقل طريقان:

الأول: التسليم بصحة النقل مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في علمه (المتشابه).

الثاني: تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة.

لكننا نجد أن رواد المدرسة الإصلاحية نهجوا الطريق الثاني (التأويل). وهذا يتعارض مع منهج المدرسة الأثرية (أصحاب الحديث) الذين يقدمون النص على العقل مطلقًا ، ومن ثم فإن قضية المعجزات مما يتعارض فيه العقل مع النقل وفق رؤية المدرسة الإصلاحية فكان المخلص من ذلك هو التأويل لدرء ذلك التعارض.

سأحاول تأصيل موقف الشيخ محمد عبده من المعجزات ـ وفق فهمي له ـ ثم أعرض لنموذج من تأويلاته . يقوم موقف محمد عبده على مقدمتين:

الأولى: السنن الكونية ثابتة لا تتغير ﴿وَلَنْ تَجدَ لسُـنَّة الله تَبْديلاً﴾ {الأحزاب: ٦٢} و{الفتح: ٢٣}، ﴿ولا تجدُ لسُنَّتنا تحويلاً﴾ {الإسراء: ٧٧}.

الثانية: البدهيات العقلية ثابتة لا تتخلف (كاستحالة اجتماع النقيضين)، وبناء على ذلك يجب أن تكون المعجزة خارقة للعادة، جائزة عقلاً؛ فالشيخ إن لم يجد للتأويل سبيلاً يؤمن بالمعجزة على ظاهرها، لكن هذه المعجزات انتهت بـ (ختْم النبوة)، وأضحت السنن الكونية ثابتة لا تتغير لأي بشر، ومن ثم فهو لا يؤمن بالكرامات الخارقة، ذلك أن الناس دخلوا في مرحلة الرشد.

ومن تأويلاته قوله: إن حجارة السجّيل في حادثة الفيل هي مرض الجدري والحصبة مستندًا إلى قول عكرمة ويعقوب بن عتبة: إن أول ما ظهر الجدري في شبه

---

٤٧ انظر محمد عمارة، **الأعمال الكاملة**، ٢٨٢/٣.

٤٨ انظر: ابن تيمية، **درء تعارض العقل والنقل**، تح: عبد اللطيف عبد الرحمن (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٧م) ٤/١.

٤٩ انظر كلام محمد عبده في المعجزات في: محمد عمارة، **الأعمال الكاملة**، ١٨٣/٤، ومقدمة كتابه: **الإسلام والنصرانية**.

الجزيرة ذلك العام . لكن ذلك التأويل - وإن كان له مستند تاريخي - يخالف قانون اللغة، وهو أن الحجر هو الحجر.

إن التأويل الذي أجراه محمد عبده في مواضع كثيرة لم يخل من إسقاطاتٍ ظاهرة في محاولة لعَقْلَنة المعجزات، وإن كان بعضه محتملاً - لغة - كتأويله جنة آدم التي خرج منها بالبستان مستدلاً بالمعنى اللغوي للجنة، وبالقرينة (اهبطوا)، والأصل فيها النزول من مكان مرتفع، وليس بالضرورة أن يكون من السماء، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مصْرًا فإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾.

أما الشيخ رشيد رضا وشيخ الأزهر الأسبق مصطفى المراغي رحمهما الله فينتهجان منهج الشيخ عبده، ويؤكدان على أن معجزة النبي (هي القرآن وحده، ويستشهدان بآيات سورة الإسراء {٩٠ - ٩٣} ، وهو ما ذهب إليه هيكل نفسه. ويذهب الشيخ الخضري إلى الرأي القائل: إن الإسراء والمعراج كان بالروح فقط، وليس بالجسد وهو رأي قديم.

أما هيكل في كتابه (حياة محمد) فهو يمثل - بامتياز - المدرسة العقلية؛ فهو منذ البداية يقول عن كتابه: "إنها دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة"، يقصد وفق التفسير المادي الوضعي، ومن ثم فهو يسرف في تأويلاته؛ فالحجارة في حادث الفيل الحصبة والجدري، وحادثة شق الصدر مختلَقَه تبعًا لموير ودرمنغم وغيرهما، والإسراء بالروح فقط، إلى غير ذلك.

تأثر هيكل بالمستشرقين ووافقهم في بعض آرائهم، أمثال موير ولامنس، وسبق أن لامنس - على الخصوص - يسوعي مفعم بالكره للإسلام ونبي الإسلام، على حد قول درمنغم !

إن هيكل يركز في كتابه هذا على الجانب الإنساني (البشري) من حياة النبي ﷺ، ومن هنا أتت التسمية (حياة محمد) التي استعارها من وليم موير في كتابه (حياة محمد).

---

[٥٠] انظر: محمد عمارة، **الأعمال الكاملة**، ٣/٣٧٣.

[٥١] انظر رشيد رضا، **الوحي المحمدي**، ومقدمة المراغي لكتاب حياة محمد لهيكل.

هذه أهم المناهج التي خضعت لها السيرة النبوية، ونختم بحثنا بالتأكيد على ضرورة إعادة كتابة السيرة (التطبيق العملي للإسلام) وفق مناهج جديدة تجمع بين دقة المنهج العلمي وصحة الأخبار من جهة، وبين عمق الإيمان بنبوة صاحب السيرة (من جهة أخرى.

يجب أن ندرس السيرة النبوية من جميع جوانبها (النبوية والبشرية)، فندرس حياة محمد ﷺ بوصفه نبيًا، وإمامًا (قائد دولة)، ومفتيًا، وقاضيًا، وإنساناً (زوجًا، وأبًا، وجدًا)، كما ينبغي دراسة تفاعلات هذه النواحي فيما بينها؛ لدراسة أثر الوحي والفكرة الدينية في عملية بناء وتغيير المجتمعات.